الفصل الثامن

متى ظهرت الكلمة العربية «نحو» للمرة الأولى بمعنى «القواعد»؟[1]

مايكل كارتر

مقدِّمة التَّرجمة

فيما يلي ترجمة لمقالة المستشرق الأمريكي مايكل كارتر M.G. Carter بعنوان: «متى ظهرت الكلمة العربية «نحو» للمرة الأولى بمعنى القواعد؟ «*When did the Arabic Word Nahw First Come to Denote Grammar*? Language & Communication, 1985, 5(4): 265-72

ولعل قضية المصطلح النَّحوي والحديث عن نشأته وتطوُّره وعَلاقاته من القضايا المُهمَّة في تاريخ النَّحو العربي حيث تساعد في رسم صورة مُفصَّلة عن خطوات تطوُّر هذا العلم. ويبدو أن النَّحو العربي ومصطلحاته المختلفة تمتَّع منذ نشأته بحركية فاعلة تنسجم مع متطلَّبات المجتمع العربي في فترة طويلة امتدَّت من القرن الثّامن إلى القرن الحادي عشر الميلاديين، ولا أدلّ

(١) ترجمة: د. عبد المنعم السيد جدامي و د. منتصر أمين عبد الرحيم.

على أهمية البحث الَّذي نقدِّم ترجمته هنا من أنه يقدِّم لنا أسبابًا جيِّدة لرفض فرضيات الاقتراض الأجنبية المشوَّشة، ويجعل أنشطة النُّحاة بعيدة عن الاعتباطية. فهذه الدِّراسة تضيف من خلال تتبُّعها تطوُّر مصطلح «النَّحو» دليلًا على أصالة النَّحو العربي بصورة غنية بتنوُّع مميَّز من الأدلَّة.

متى ظهرت الكلمة العربية «نحو» للمرة الأولى بمعنى «القواعد»؟

ثَمَّة مجموعة قليلة ممن يجعلون لكلمة «القواعد grammar» معنًى ثابتًا خلال القرون الثَّمانية الأخيرة، ولكن قواعد عام ١٦٦٠م، على سبيل المثال، تختلف كلية عن قواعد عام ١٩١٦م أو ١٩٥٧م، فالأنحاء الثَّلاثة لا تتخذ جميعها مَقاصد جزافية من حيث الدَّلالة التّاريخية، وعليه يصبح القول إن كلمة «نحو» ما زال لها بالنِّسبة لمعظم المُستعرِبين مَعنًى واحد لم يتغيَّر خلال اثني عشر قرنًا من ظهوره تعميمًا عادلًا. وفى تتبُّع تحول مصطلح «نحو» ومصطلح «نحوي» المُشابِه له من مصطلحات غير رسمية إلى أخرى رسمية، فإن المبدأ المُهمَّ هنا في هذه المقالة أن النَّحو مثله مثل المفاهيم الرَّئيسة الأخرى في حضارة العرب (مثل مصطلح «إسلام» نفسه) يشتق معناه من السِّياق التّاريخي الَّذي نشأ فيه [٢].

من أجل هذا السَّبب، فإن النَّوادر والمرويّات الخاصَّة بأصول النَّحو العربي في قرن ونصف لا بد أن تُعالَج بقدر كبير من الحذر؛ ذلك أن جميع هذه الأدَّلة يرجع تاريخها إلى القرن التّاسع الميلادي والقرون المتأخِّرة، ذلك الوقت الَّذي بدأ العرب فيه إعادة تفسير ماضيهم بوعي بناء على رؤية إسلامية

(٢) لم يتم عزل النَّحو بعيدًا عن القضايا الإيديولوجية، وتم تطوير هذه الأفكار في Carter ١٩٨٣ ومنها جاءت محتويات هذه المقالة.

محدَّدة للتّاريخ [٣]؛ ولذا فإن المصادر تبين بصورة بارعة ما نتوقعه بأية حال من الأحوال؛ أعني الاهتمام بتوطيد النَّصّ القرآني، وبداية الاهتمام بسلامة اللُّغة والأسلوب، وأول مجموع من المواد الأدبية، ديني ودنيوي، مما سيقدِّم أساس أرشيف هائل ونهائي لما سيصبح عليه الإسلام.

إن قيمة المحاولات التُّراثية لفهم مصطلحات «نحو» و«نحوي» قليلة على أية حال؛ ليس فقط من حيث مبادئ عدم المقبولية، ولكن لأنها – علاوة على هذا – لا تحتوي تقريبًا على معلومات تستحق الاهتمام حول ما يفعله «نحويّو» هذه الفترة وعلى أية أُسس نَظرية [٤]، ففي أية قضية ثَمَّة عدم مطابقة بين الأفكار المشهورة في الضَّبط الإملائي القرآني المعترف بها وبين الشَّخصيات المشهورة في السِّير مثل النُّحاة الأوائل؛ ومن ثَمَّ، فإن أية محاولة لتحديد «النَّحو» و«النَّحوي» وتفسيرهما تبقى مجرد تأمُّل.

لم يكن متاحًا أي دليل مؤكَّد على النَّشاط النَّحوي المبكِّر حتى النِّصف الثّاني من القرن الثّامن الميلادي غير كتاب معروف بكتاب سيبويه [ت قبيل ٨٠٠ م][٥]، ولكن على الرَّغم من أن سيبويه يشير عادة بصورة واضحة إلى مُتقدِّميه (بوصفهم نحويين، جمع نحوي) ويتركنا دون شك في أنهم تلك الجماعة الَّتي اهتمت بالمشكلات اللُّغوية في مستوًى واضح تمامًا[٦]، فإنه لم يستخدم كلمة «نحو» داخل أي سياق يمكن أن يسمح بصورة معقولة بتعادله مع «القواعد». من ناحية أخرى يقع مصطلح «نحو» مئات المرات – إن لم

(٣) انظر بالنسبة لعملية «الأسلمة» الَّتي تم توريثها Schacht, 1959:283f، والتطبيق الأقرب لهذه الفكرة في المراحل الأولى من النَّحو يتمثل في Talmon ١٩٨٥.

(٤) قارن Carter ١٩٧٢ والرؤية المخالفة لهذا Versteegh ١٩٧٧.

(5) Carter 1973 .

(6) Talmon 1982.

يكن آلاف المرات – داخل الكتاب تكرارًا لمجموعة من المترادفات «طريق» و«سبيل» وجميعها يُستعمل بصورة مجازية لـ«طريقة التَّحدُّث» [٧]، فإذا كان النَّحو لا يعني القواعد هنا، فإن المُشتقّ «نحويين» لا يعني «القواعديين»، ولا يبدو هذا معقولًا لاستنتاج أن المفهوم الأساسي للنَّحو حتى قبل سيبويه هو «طريقة التَّحدُّث»، ومن ثَمَّ، فإن مصطلح «النَّحويين» خلال هذه الفترة يعني ببساطة «أولئك الَّذين يهتمون بالطَّريقة الَّتي يتحدث بها النّاس». إن أي افتراض يقول إن مصطلح النَّحويين في هذه الفترة لا بد أن يعني «القواعديين» سوف ينسحب أيضًا على الحقيقة الغريبة الَّتي مَفادها أن كتاب سيبويه هو بالتَّأكيد العمل الوحيد من حيث الحجم (أكثر من ٩٠٠ صفحة في النُّسخة المصرية) من بقية الأدبيات الَّتي لم تذكر «القواعد» ولو مرة واحدة.

والنَّتيجة الَّتي يمكن الوصول إليها من هذا أن سيبويه لم يُشِرْ إلى القواعد؛ لأنها ببساطة لم تكن موجودة، وأنها في الحقيقة سوف تبدأ في الظُّهور مع الكتاب نفسه، ونحن نعرف من إشارات سيبويه عن النَّحويين أن الفكر اللُّغوي قبله كان محددًا بنمط قياسي صارم من التَّفكير لم يَقُدِ اتِّفاقًا إلى نتائج غير مقبولة فقط، بل يفترض أنه ليس ثمة خبرة نظامية وراء الاحتكام إلى مجرد التَّشابهات الشَّكلية بين الظَّواهر. مثل هذه المنهجية المقيَّدة لا تستطيع أن تتطوَّر إلى النَّوع النِّظامي الموجود في الكتاب الَّذي عَزَل بطريقة فاعلة النَّحويين السّابقين على سيبويه بعيدًا عن أية مشاركة أيضًا في تاريخ النَّحو عدا

(٧) نحو ١٠١٨ مرة معًا بمعان متداخلة متنوعة وفقًا لما أحصاه تروبو، انظر« Nahw» في Troupeau ١٩٧٦، حيث استخلص عددًا كبيرًا يصل إلى ٩٨٣، ولكن لم يكن ثمة تباعد عميق بين «مثل» و« على طريقة...» وبين استخدام سيبويه لمعنى قطعي للنحو، على سبيل المثال «هذه هي الطريقة» «النَّحو» الَّتي يتحدث بها الغراب» (الكتاب ٢/ ٥٣، و Carter ١٩٧٣: ١٤٧. n.١٠) يؤكد على الأقل كيف فهم هو هذه المصطلحات.

آرائهم التَّقليدية، وحتى الآن، فإن أهميتهم تقل من خلال إغفالهم كلية (مع استثناء موضع خلاف) [٨]، والغياب التّام لأي دعم تاريخي.

ونعود الآن إلى كلمة «نحو» والتَّحوُّل الحاسم في معناها الَّذي حدث بالضَّرورة قُبيل وفاة سيبويه ولم يتأخر تمامًا عن السَّنوات الأُوَل من القرن التّاسع، وهذا اندماج مفهوم مُطْلَق وغير مناسب للنَّحو في عبارة «أهل النَّحو» الَّتي استخدمها الأخفش الأوسط [ت ٨٣٠ م] [٩]، ومن بعده المُبرِّد [ت ٨٩٨ م][١٠]، والَّتي يمكن مقارنتها بصِيَغ مماثلة مثل: «أهل العلم» [١١]، و«أهل العربية»، و«أهل التَّأويل» [١٢]، و«أهل التَّفسير»، و«أهل الدّين»[١٣]، وغيرها مما يقع في المصادر نفسها. وثَمَّةَ مشكلتان للتَّفسير ظاهرتان بوضوح؛ الأولى ماهية المعنى الجديد للنَّحو هنا، والأخرى أنه بما أن النَّحويّين ما زالوا حَلْقة مستمرة خلال هذه الفترة، فما العَلاقة بين «النَّحويّين» والتَّعبير المستحدَث «أهل النَّحو» ؟

إن ظهور معنى جديد للنَّحو يمكن شرحه بوصفه انعكاسًا لتغيُّر نوعي في المقاربة (الَّتي قدم دليلها المبكِّر الفَرّاء ت ٨٢٢ والأخفش) أعني تحوير طريقة سيبويه الوصفية إلى أغراض قياسية وتعليمية، حيث إن ترجمة «النَّحو» – بناءً على هذا – كما هي مُستعمَلة في الكتاب ستكون «الطَّريقة الفعلية الَّتي يتكلَّم بها النّاس»، أما في زمن الفَرّاء، فإن هذا المصطلح اكتسب بصورة

(8) Talmon1982, 28.

(٩) الأخفش ص ٣٣٥.
(١٠) المبرد ١٩٦٣ ج ٤ ص ١٩٩.
(١١) على سبيل المثال الأخفش ص ١٥٢، ٣١٨، ٣٦٧، ٤٦٧.
(١٢) الأخفش ص٦٣، ١٤٨، ١٧٢.
(١٣) الفَرّاء ١٩٥٥، ج ٢ ص ٢٦٦.

مؤكَّدة معنى «الطَّريقة الَّتي يجب أن يتكلَّم بها النّاس»؛ مشيرًا بهذا إلى اختلاف جوهري في التَّوجُّه. وظَلَّ النَّحو مستعملًا بهذا المنظور، أي المعنى التَّعليمي، خلال القرن التّاسع وما بعده ولم يَفْقده، وفي بداية القرن العاشر الميلادي كانت ثمة إشارة إلى أن النَّحو تجمد حتى في مضمونه أيضًا، فالكتاب المُهمّ الَّذي قَدَّمه لغدة [ت ٩٢٤م] يحتوي على فصل عنوانه «باب من النَّحو» (١٤)، وهو داخل كتاب خُصِّص بأكمله بصورة واضحة لمتطلَّبات النَّحو الَّتي يجب أن تؤخذ في الحسبان. وبما أن هذا الفصل موضع الاعتبار يتعامل مع موضوع ظهر في البداية في «الكتاب» مثل الخلاف بين سيبويه والنَّحويين (١٥)، فإن استخدام لغدة غير اللّائق لـ «النَّحو» هنا يمكن رؤيته على أنه يعني أن ثمة نشاطًا تقليديًّا ومميزًا الآن يُدْعى «نحو»، وهو ما يمكن أن نفسِّره بأنه «السِّمات الفنية للطَّريقة الَّتي يجب أن يتحدَّث بها النّاس».

على ضوء هذا يمكن للتَّعبير «أهل النَّحو» أن يعني «قُضاة الطَّريقة الَّتي يجب أن يتحدَّث بها النّاس» كي نميز بينهم على الأقل من حيث الاسم وبين «النَّحويين» القدماء «الَّذين اهتموا بالطَّريقة الَّتي يجب أن يتحدَّث بها النّاس»، وليس ثَمَّة تفريق آخر بين المجموعتين يُعَدُّ ممكنًا في الوقت الحالي. إن تعبير «أهل النَّحو» يمكن أن يفسَّر بصورة مؤقَّتة كدليل على وعي العلماء الذّاتي المتنامي باللُّغة (وهو وعي يمكن ملاحظته في الوقت نفسه داخل علوم أخرى)، ولكن هذا لم يستمرَّ ومن الصَّعب أن يعود مرة أخرى بعد القرن التّاسع الميلادي. إن سيادة مصطلح «النَّحويين» تعود بلا شَكٍّ إلى افتراضات مألوفة، بل غير صحيحة من الوِجْهة التّاريخية بأن نَحْوِيّي القرن

(١٤) لغدة ١٩٧٤، ص ٢٣٥.
(١٥) سيبويه ١٨٩٨ – ١٩٠٠، ١/ ١٦٧ – ١٦٨.

الثّامن والقرون السّابقة انشغلوا بالنَّشاط نفسه كنَحْوِيّي القرن التّاسع، وبمعنى آخر، إن النَّحو الَّذي تضمَّن نوعًا ما من العلم اللُّغوي في القرن التّاسع (وليس قبل هذا القرن من وجهة نظرنا) كان هو الجِذْر الاشتقاقي لمصطلح «نحويين» في القرن الثّامن، ولعل أسباب هذه المفارقة التّاريخية يمكن الكشف عنها من خلال التَّغيُّرات الَّتي أَثَّرت في الإسلام بالكلية في هذا الوقت، فقد بدأت العلوم الإسلامية – ومن بينها النَّحو – في القرن التّاسع بكتابة تاريخها الخاصّ [١٦]، وبدا ملاحظًا أن النَّحو أصبح يُنظر إليه على أنه علم تمارسه سلسلة مُتَّصلة من النَّحويين تمتد إلى الماضي لتعود إلى مؤسِّسها الأسطوري أبي الأسود الدُّؤلي [ت ٦٨٨].

على أية حال ليس هناك خلاف على أن النَّحو قد اكتسب حالة من الحِرفية الأكاديمية في القرن التّاسع، ولو أن هذا لا يُخَوِّلنا للمساواة بصورة تلقائية بين النَّحو والقواعد، ولكي نتأكد من هذا، فإن النَّحو في هذه الفترة تَمَّت الإشارة إليه على أنه «علم النَّحو» [١٧]، ولعل الأعمال الباقية تؤكد مباشرة على أن النَّحو أصبح علمًا بصورة حقيقية. إننا نعلم أيضًا بصورة عَفْوية من خلال ابن سحنون [ت ٨٧٠م] أن النَّحو كان مستقلًّا بقدر كافٍ ليشكل جزءًا منفصلًا عن المُلَخَّصات (الفهارس) التَّعليمية وأنه أخذ يفرز كتبه ومقدِّماته الخاصَّة[١٨]. والشَّيء المُهمّ هنا هو تزايد استعمال عبارة مثل «هذا

(١٦) انظر Sizgin 1984: 11ff and 13 حيث نُسِب أول عمل بيليوجرافي إلى محمد بن سلام الجمحي المتوفى ٨٤٥ م.

(١٧) الجاحظ (ت ٨٦٨م) تم اقتباسه في Rundgren ١٩٧٠–٧١: ١١٦.

(١٨) انظر Lecompte,1953:103 والملاحظة ٩١ وما بعدها حيث وضعت قائمة بخلاصة واقعية اشتملت على جميع النَّحو.

ما يسمّيه النَّحويون...»[١٩]، وهو ما يقدم بعض حرفية الوعي الذّاتي الجديدة بصورة تقنية وعرضية واضحة. وربما كان نشوء نحو رسمي يُعزى أيضًا إلى شيوع العبارة غير المعتادة «صاحب نحو» داخل المصادر الببليوجرافية المعاصرة[٢٠] مطبقة على الأشكال الأولى، وربما كانت تعني مثل هؤلاء ممن لهم نبوغ فطري أو غير وافٍ بالنَّحو الَّذي هو الآن مفهوم محدد بصورة جيدة.

على أية حال، فإن تسوية النَّحو بالقواعد في هذه المرحلة ستكون سابقة لأوانها، فنحو القرن التّاسع يختلف عن نحو القرن الثّامن (لا سيما عند سيبويه) في نقطتين أساسيتين: الأولى أن ثمة اقتراضات من المصادر الأجنبية (بصورة أساسية اليونان)[٢١]، هذه الاقتراضات يمكن تمييزها، ولكنها هامشية.

والنُّقطة الأخرى أن نظام الوصف المستخدَم في الكتاب تم تحويله بشكل كامل إلى نظام توجيهي تعليمي، ولكن بصورة مختلفة بقي مفهوم سيبويه الجوهري عن اللُّغة بوصفها طريقة للسُّلوك سليمًا تمامًا، والحقيقة أن استعارية كلمة «طريقة» لم تختفِ أبدًا من غالبية الأعمال المتأثِّرة بالهيلينية، ومن ثَمَّ استمرت بوصفها سِمَة نوعية للنَّحو العربي مانعة له من التَّأثُّر الخارجي.

والحقيقة أنه من الواضح أن هذه الاستعارية نمت بشكل واضح مع مرور الزَّمن؛ فبالإضافة إلى مجموع المُترادِفات الموجودة في الكتاب مثل: (طريقة، سبيل، وجه، مجرى، مذهب، سنة، شرع)، فإننا نصادف كلمات مثل (مخرج، ومنهاج، ومجاز) لطريقة التَّحدُّث في أعمال القرن التّاسع وما بعده بالطَّبع. وهذا متوقَّع، فالصّورة أن الشّائع والقديم في اللُّغة العربية ومجاوزة النَّحو من

(١٩) على سبيل المثال سيبويه ١/ ٣١٥، المبرد ١/ ٢٥٤، ٣/ ٨٩ وغيرها.
(٢٠) على سبيل المثال اليزيدي ١٩٧٤، ص١٤٠، ١٤٢، ١٤٤.
(٢١) وهذه – أصبحت واضحة جدًّا – وصفها Versteegh ١٩٧٧ خاصة في الفصل الثالث.

«الطَّريقة» إلى «القواعد» في نهاية الأمر إنما هو انعكاس بسيط لمرور (السُنَّة) بمعناها الضَّيِّق من طريقة الدُّنيا إلى طريقة اعتناق الإسلام المعبّر عنها بكلمة (سُنَّة) بمعناها البعيد[٢٢].

وفي القرن العاشر تم تقديم عنصر جديد داخل الحياة الفكرية للعرب سيكون له في مساره المباشر تأثير على النَّحو، فللمرة الأولى تم الاهتمام بصورة جِدِّية بأعمال أرسطو الخطابية، وتمت مراجعة ترجمات أعماله المنطقية والدُّخول فيما اصْطُلح عليه - بصورة ملائمة - بالسّكولاستيكة (الفلسفة النَّصرانية) [٢٣]، وجرى هذا في المناظرة العلنية - ربما القاسية - بين النَّحويين ذوي النَّزعة المعارضة والفلاسفة والمناطقة، ولعل الظّاهرتين متَّصلتان، فالفلسفة النَّصرانية تتطلب تمييز الحدود الدَّقيقة بين العلوم، والنَّحويون الَّذين أدركوا تَبعات هذا على قُوَّتهم وتأثيرهم أُجبروا على الدُّخول في موقف دفاعي ضِدَّ التَّعريف الفلسفي للنَّحو الَّذي تَمَّ استنباطه عن عَمْد من أجل تقليص سلطتهم ومكانتهم[٢٤].

وعند هذه النُّقطة يمكن أن نأخذ في اعتبارنا أنه ربما يكون هناك نوع من التَّكافؤ بين النَّحو وفن القواعد على الرَّغم من تحفُّظين مُهِمَّين: أولهما أن من المحتمل ألّا يكون هناك شك في أية اقتراضات ذات شأن داخل النَّحو من أي نظام قواعدي مختلف، أدناها القواعد التّخنية لليونان، إن ما تشرَّبه النَّحويون من المصادر الأجنبية هو المواد المنطقية فقط على الرَّغم من أن

(٢٢) قارن Schacht ١٩٥٩: ٥٨.

(٢٣) انظر Peters ١٩٦٨: ٧٩.

(٢٤) المثال الجيد لهذا موجود عند Enderb ١٩٧٨، وانظر Sizgin ١٩٨٤: 228f و Elamrani-Jmal ١٩٨٣.

المسار المحدد ودرجة الوعي بهذه الاقتراضات لن يكونا معروفين أبدًا.

والتَّحفُّظ الآخر أن النَّحو الَّذي تم الدِّفاع عنه ضد اعتداءات الفلاسفة كان ما زال هو نحو القرن الثّامن والتّاسع، فهناك مئات السِّنين قبل أن يَستقبل النَّحو طابعه اليوناني المحدَّد. هناك فقط ممن يعرف الهيلينية مثل قدامة [ت ٩٣٨ هـ] من يستطيع الحديث عن «صناعتي النَّحو والمنطق»، كما لو أنهما عِلْمان في مكانة متساوية، فكلاهما صناعة بالمفهوم اليوناني وعلى الطِّراز اليوناني[٢٥]. وفي القرن العاشر لم يُذْعِن النَّحويون إلى هذا، فالتَّقسيم المعاصر للعلوم الَّذي قدَّمه الخُوارَزْمي يَفْصِل بدقَّة بين النَّحو التَّقليدي بكلماته الفنِّية الفطرية وبين بعض المفاهيم اللُّغوية اليونانية الَّتي كان المؤلِّف يعيها[٢٦]، ولعل عدم القدرة على تشرُّب الأفكار الأجنبية في هذه المرحلة سوف يتبين من خلال المحاولة غير النّاجحة للفَرّاء [ت ٩٥٠ م] في إعادة تقديمها باللُّغة العربية والَّتي قَدَّمها بعزيمة صادقة ولكن دونما تأثير يُذْكَر في النَّحو[٢٧].

ويمكن أن نتوقف هنا وننظر إلى الموقف من جانب آخر من جوانب المواجهة كي نرى أن انعكاس النَّحو على السِّياق الفلسفي يمكن أن يكون مفاجأة، على سبيل المثال تعلم أن القواعد اليونانية تمت ترجمتها بأشكال متنوِّعة على أنها نحو، بلاغة، فصاحة، كتابة، صناعة علم اللِّسان[٢٨]، وربما

(٢٥) قدامة بن جعفر ١٩٥٦، ص ٩٥.

(٢٦) الخوارزمي ١٩٨٥، ص ٤٦.

(٢٧) على سبيل المثال اقتباس orthos و mustaqim ومعناهما مستقيم. انظر Versteegh ١٩٧٧ :٦٨، ولكن النُّحاة التقليديين لم يستخدموا «مستقيم» لـ«الطريق المستقيم»، بل على العكس طبقت على صحة المنطوق بكامل عناصره (قارن Carter ١٩٧٣ :١٤٧) بمعنى أن هذا المصطلح قديم قدم اللَّفظة القرآنية «مستقيم» كالمسار الصَّحيح والطَّريق المستقيم.

(٢٨) بالنسبة للأربعة الأوائل انظر Georr ١٩٤٨ : ٢٠٩ ، ولاحظ مصطلح بلاغة، وبالنسبة للأخير انظر الفارابي ١٩٥٣، ص ٩ وما بعدها. ويؤكد هذا الغموض أن العرب كانت لديهم فكرة بسيطة=

كانت الكتابة من بين هذه التَّرجمات أدَّق حرفيًّا، على الرَّغم من أن النَّحو هو الَّذي يمكن أن نعتبره صحيحًا من الوِجْهة الثَّقافية، وهذا يؤكِّد على ما نعرفه من أنه كانت هناك أمور مشتركة قليلة جدًّا بين النَّحو بوصفه علمًا قديمًا نسبيًّا وبين علم المنطق الحديث لدى العرب. وعلى نحو دقيق دخلت استعارية النَّحو بشكل مميز داخل لغة التَّرجمات الفلسفية: فمعظم التَّعبيرات الحالية عن «الطَّريقة» قُدِّمت من خلال المترادفات (نحو/ طريقة/ مجرى/ وجه/ سبيل) وجميعها بمعنى الطَّريقة ومتشابهة داخل السِّياقات النَّحوية بداية من سيبويه وما بعده.

وكما أن تقدُّم النَّحو في القرن العاشر أعطى الإشارة الأولى على أنه قد أصبح صناعة، فإن محتوى هذا النَّحو ما زال في حاجة تقريبًا إلى الأشكال القديمة كلية، إن التَّجديد الأساسي لهذه الفترة هو الاقتراض الواضح من (المداخل العلمية Isagoge)، بمعنى التَّدريب على تقديم الأعمال القواعدية مع تعريف النَّحو والتَّصريح بأغراضه وأهميته[٢٩]. فإذا كانت السِّير غير المدعومة بالنُّصوص الباقية يمكن الوثوق بها، فإن هذا التَّغيُّر يمكن أن يأخذ مكانه في البدايات الأولى من القرن. فسلمة بن عاصم [ت ٤٥٨] يُنْسَب

= جدًّا عن قواعد اليونان، وأنها بالأحرى كانت معرفة غير مباشرة على الإطلاق قبل القرن العاشر الميلادي وحتى لو وُجدت، فإنها ستكون من طريق الوسطاء ثنائي اللُّغة؛ لأن النَّحو اليوناني له تاريخ لم يتأثروا به على الإطلَاق، ولما وُجد الدَّليل الضَّروري على هذه المعرفة قبلهم، فإن قواعدهم الفطرية كانت ناجمة عن الإدراك الذّاتي المتَضمَّن في التُّراث الدّيني غير الدُّنيوي، وربما يكون قد جذبهم النِّظام اللُّغوي الخارجي، وحتى التَّفسير الأسطوري لأصل النَّحو العربي (لحماية اللُّغة من الفساد الَّذي نجم عن مخالطتهم الشُّعوب غير العربية) هو نوع من الأسلمة المذكورة سابقًا وهي حالة من الإجلال للماضي ورؤية جعلت الموقف الحالي من الصَّعب تجنبه، قارن Carter 1983: 70 f.

(٢٩) بشكل غير رسمي لأول مرة في الزَّجّاجي ١٩٦٩، ص ١٦٦ وبصورة أكثر وضوحًا عند الفارسي في مقدمته لكتابه الإيضاح.

إليه كتاب عنوانه «السُّلوك في النَّحو»[٣٠]، وهو يعكس تمامًا خصائص نحو القرن التّاسع، وكان ابنه المفضَّل [ت ٣٠٩] هو مؤلِّف كتاب «مدخل إلى علم النَّحو»[٣١]، وهو نسخ مسموح به لـ (المدخل العلمي) تمت ترجمته حديثًا بواسطة الدمشقي [ت ٩٠٠ تقريبًا][٣٢] وليتنا نمتلك نسخًا من أعمال الأب أو الابن.

إن الحديث عن (المدخل العلمي) ينبهنا إلى أنه يجب ألا نغفل عن تأثير نظام التعليم الإسلامي في تحديد الشَّكل الأخير للنَّحو، فإذا كان التَّعليم أصبح يمارس بصورة أكثر مؤسساتية، فإن النَّحو قد تكيَّف بصورة أكبر مع متطلَّبات تعليمية. وفي القرون الأولى من الإسلام انعكس أسلوب المجالس غير الرَّسمية التَّعليمي بشكل دقيق على الأعمال التَّعليمية غير المنظمة لسيبويه وتابعيه في القرن التّاسع والعاشر، وعلى أية حال، فإننا نعرف من خلال ابن سحنون [ت ٨٧٠] أن التَّعليم في عصره تقدَّم إلى النُّقطة الَّتي تأسَّست عندها المناهج التَّعليمية بصورة صحيحة، وأن الكتب الخاصَّة بموضوعات مُتنوِّعة أصبحت مُتداوَلة[٣٣]، ومثالان من هذه الحقبة أحدهما أَلَّفه لغدة [ت ٩٢٤] والآخر لابن كيسان [ت ٩١٢ أو ٩٣٢] يبينان الاستجابة إلى الطَّلب المتزايد على مثل هذه الكتب؛ فهي كتب بسيطة وكتيبات أساسية لا تصنع شيئًا سوى إعادة تقديم النَّحو الأساسي الَّذي قدَّمه سيبويه مع إعادة تنظيم داخلية اتفاقية واضحة. وبينما كان المدخل العلمي يُقَدَّم في الوقت المناسب على أساس

(٣٠) أورد Sizgin ١٩٨٤: ١٣٦ هذا العمل تحت عناوين عديدة والواضح أن بعضها خطأ.
(31) Sizgin 1984:139.

(٣٢) انظر «فرفريوس» في موسوعة الإسلام الإصدار الثاني.
(٣٣) مرجع سابق رقم ١٨، الإحجام عن بيع أو استئجار الكتب أو القصائد أو النَّحو (السابق ١٠٣) يقترح احترافية مؤسسة بشكل جيد لا تتمنى أن تدع سلطتها تمتد إلى جرد البضائع.

تراث تعليمي ناجح، فإن الإشارات الأولى الواضحة كانت مميَّزة في عمل الزَّجّاجي [ت ٩٤٩م]، وإذا أسقطنا المدخل المفقود المنسوب إلى المفضَّل ابن سلامة فسينجم عن هذا إعادة بناء كاملة لمحتويات المقدِّمات التَّعليمية.

ولأن من المتصوَّر أن يقدِّم المدخل العلمي هيكل البنية الفكرية للإسلام من القرن العاشر وما بعده، فإن «المدرسة» الَّتي تم تدشينها في نهاية هذا القرن يمكن اعتبارها مساوية لهذا المدخل العلمي في صورة مبنًى؛ إذ كانت المدرسة هي المؤسَّسة الأكاديمية المصرَّح بها في الإسلام الَّتي مَثَّلت من خلال مجال تأثيرها قمة التِّقنية الإسلامية التَّعليمية. وبناءً على هذا، فإن الشَّيء المُهِمَّ بصورة خاصة أن قانون المدرسة الأكثر شهرة على الإطلاق (والَّذي وُجد سنة ١٠٧٠م) – وهي المدرسة النِّظامية في بغداد– يشترط وجود مدرس للُّغة العربية بين مجموعة العلماء الدّائمين في المدرسة[٣٤].

لقد وصلت المرحلة الآن حيث يمكن الجمع بين العناصر الثَّلاثة لتقديم الصّورة النِّهائية للنَّحو: التُّراث الأصلي «للطَّريقة» الَّتي وصلت إلى المثالية والكمال بفضل سيبويه، والمنهجية العلمية الَّتي تم اقتراضها ويمثِّلها المدخل العلمي وأدبياته الملحقة، والنِّظام التَّعليمي المتمثِّل في المدرسة. ولعل أحد الأعمال المبكِّرة إن لم تكن الأولى في عرض الاندماج الكامل بين هذه العناصر الثَّلاثة هو مقدِّمة ابن بابشاذ [ت ١٠٧٧م][٣٥]، وفيها أصبحت استعارية النَّحو ذات رؤية بارزة تتكامل مع مجالها الخاصِّ من المرادفات (طريقة، سبيل، مجرى، وهكذا). إن بنية الكتاب تعليمية بصورة تامة، فهي تبدأ بمقدِّمة توضح أسباب تأليفها، وتنطلق في تعريفات موضوعها وأهدافها

(٣٤) المقدسي ١٩٦١، ص ٣٧، ١٩٨١، ص ٣٠٢.
(٣٥) راجع تاريخ إنشاء المدرسة النظامية المذكورة سابقًا.

وسبل إنجازها[٣٦]، وهي تحدد جميع المصطلحات الفنية كلما وردت فيها [٣٧]، وتطبق تقسيمًا ثنائيًّا بطريقة صارمة[٣٨]، كما تحصي الحد الأعلى لمجموع الوحدات والعناصر [٣٩]، وتدخل في حوار لا ينقطع تارة بين الأستاذ ومخالف له غير معروف، وتارة أخرى بين الأستاذ وتلميذه[٤٠].

علاوة على هذا، فإن المقدِّمة بأكملها تعليق على أعمال مُختصَرة للمؤلِّف نفسه، وجملة القول أن المقدمة تتداخل بصورة كاملة مع أسلوب المدخل العلمي، فهي تعليمية بصورة واضحة، وغالبًا ثَمّة اهتمام واضح بأن يُفْهِم الطُّلّاب كل نقطة يَعْرضها[٤١]، وحتى هذه النهاية، فإن محتويات النَّحو التَّقليدي أعيد توزيعها بصورة كاملة بداعي التَّبسيط، ولم تعد الموضوعات مرتَّبة بطريقة متتابعة تبعًا لمعيار لغوي داخلي كما في كتاب سيبويه، وبصورة أقل أو أكثر عشوائية كما عند ابن كيسان وغيره. وبدلًا من هذا، فإن حقائق اللُّغة تم تجميعها – على الطَّريقة الَّتي أملتها بصورة كاملة الملاءمة التَّعليمية، كما في حالة ابن بابشاذ – في عشر مقولات اعتباطية للاسم، والفعل، والأداة، والحالات الأربع، والعملية النَّحوية، وتوافُق الأصوات، والإملاء.

بعد عمل مثل المقدِّمة، فإن احتمالات وجود تطوُّر إضافي مقيَّدة إلى حد ما، ذلك أن سلطة اللُّغة الكلاسيكية الَّتي تم الاحتفاظ بها على نحو متكلَّف (إذ صُنِّفت عمليًّا بوصفها مبدأ/ قاعدة في النِّصف الأول من القرن

(٣٦) ابن بابشاذ ١٩٧٦ – ١٩٧٩، ص ٨٧ وما بعدها.
(٣٧) ابن بابشاذ ١٩٧٦ – ١٩٧٩، ص ٩٤، ١٠٠ وغيرها.
(٣٨) ابن بابشاذ ١٩٧٦ – ١٩٧٩، ص ٩٤، ١٠٩، ١٩٤، ٢١٦، وغيرها.
(٣٩) ابن بابشاذ ١٩٧٦ – ١٩٧٩، ص ٩٩، ١٥٥، ٢٩٠، وغيرها.
(٤٠) ابن بابشاذ ١٩٧٦ – ١٩٧٩، ص ١٢٣ – ١٢٧، ١٧٢، ٢٨٧، ٣٤٧ وغيرها.
(٤١) ابن بابشاذ ١٩٧٦ – ١٩٧٩ ص ١٠٩، ١١٠، ٢٠٠، ٤٠٧، ٤٣٣ وغيرها.

الحادي عشر بواسطة تعاليم إعجاز القرآن) لم تترك خيارات لتغيير محتوى النَّحو، وقدَّمت النَّظرية بطريقة مماثلة فرصًا قليلة جدًّا للقدرة على الإبداع: فالخلافات والمناقشات يمكن إعادتها بصورة تضاهي الصّورة القديمة، وعادة ما تمت في صورة جدل طقسي بين المدرسة البَصْرية والكوفية بعد أن تم تأسيس المدارس المتعارضة داخل المدن. وما يمكن عمله، على أية حال، هو إعادة تنظيم المواد، ولعل هذه البداية تم استثمارها بإبداع واجتهاد غير محدود، فالتَّعريفات تم تجميعها، وتزايدت البيانات التَّفسيرية بصورة طويلة مُملَّة أو قصيرة غير مفهومة، وبدأ إنتاج التَّعليقات، ومنها التَّعليقات العسيرة، والتَّفسيرات الخاطئة المتكلَّفة، حتى المنظومات تم إنتاجها بوصفها وسيلة تعليمية، مع بعض النَّجاح الضَّخْم، ولكن على الرَّغم من أن بعض الإبداعات لا تزال لم تظهر بعد، فإن الانشغال الأساسي بالنِّسبة للنُّحاة بعد ابن بابشاذ لم يجد بَعْدُ طُرَقًا جديدة للحديث عن الشَّيء نفسه.

والمُلاحَظة غير المستبعَدة أنه ليس هناك أية محاولة لتحديد ما يمكن فهمه بالقواعد، فالتَّعريف المقدَّم الآن هو أن القواعد هي «فرع من التَّعليم يصف اللُّغة ويبني الصُّوَر ويعلِّم القواعد الخاصَّة باستخدامها الصَّحيح طبقًا لمبادئ علمية تجعله نظاميًّا ومنفصلًا عن العلوم الأخرى تمارسه فئة خبيرة ذات صلة اجتماعية مميزة»، وهذا يبدو بشكل مُحتَّم مثل نبوءة وعي ذاتي على ضوء ما حدث سابقًا وتمت دراسته بعناية تامة، والَّذي يجب أن يثبت نجاحه الآن.

إن هذه المقالة هي تدريب على أركيولوجية الفكرة، بمعنى إعادة هيكلة الماضي من خلال كلماته الفنية، وفي حالة اللُّغة العربية يتم هذا بصعوبة غريبة من خلال الثَّبات المعروف للُّغة الأدبية الَّذي يمنعنا من ربط تغيُّرات المعنى بتغيُّرات الشَّكل: بدأنا مع النَّحو في القرن الثّامن وما زال لدينا «نحو» في القرن

العشرين.

إن موقفنا هنا أشبه شيء بموقف الأركيولوجي الَّذي يستمر في حفر شيء له شكل ثابت داخل مستويات أركيولوجية مُختلِفة يستطيع تحديده فقط من خلال ربط ما يعرفه عن أصوله بأشياء أخرى من الطَّبقة ذاتها، والنَّتيجة عبارة عن سلسلة من التَّعريفات التَّراكمية المرتبطة بالزَّمن، وهذا هو الإجراء المتَّبع ضمنًا في هذه المقالة. فعندما يتوقف مفهوم ما عن التَّطوُّر بشكل نهائي، فإن التَّعريفات النّاجحة سوف تميز هذا الوضع بكونها مجرد إعادة، ومع النَّحو، فإن هذه النَّقطة قد تَمَّ الوصول إليها في القرن الحادي عشر، ومن هنا فقط، فإن النَّحو في حالة مناسبة من الصِّحَّة كي يكافئ بشكل مؤكَّد القواعد كما تم تحديدها سابقًا.

لعل هذه المقارَبة مؤطَّرة على نحو لا يمكن إنكاره، ولكنها ذات خواصَّ محدَّدة؛ فهي تبيِّن حركية النَّحو كما لو كان يتناسب دائمًا مع حاجات المجتمع الإسلامي المتغيِّرة، فهي توضِّح حياة مجاز «النَّحو» وبقاءه = «طريقة»، وتقدِّم لنا أسبابًا جيِّدة لرفض فرضيات الاقتراض الأجنبية المشوَّشة، وتجعل أنشطة النَّحوي تبدو أقل اعتباطية وانغماسًا في الأهواء، ولو أن القارئ كان قد عرف كل هذا مُصادفةً وقَبِل مع ذلك أن يعني النَّحو القواعد دائمًا، ولكن القواعد نفسها تعني أشياء مختلفة في أوقات مختلفة، فإن هذه المقالة سوف تستمر في تحقيق غرضها بصورة متناقضة.

مراجع المؤلف

Akhfash, Al-Akhfash al-Awsat: In Faris, F. (ed.), ***Ma'ani L-Qur'an, Kuwait.***

Carter, M. G. : ***Les Origines de la Grammaire Arabe.*** **Revue des Études Islamiques 40, 69 - 97.**

Carter, M. G. 1972:

An Arab Grammarian Of The Eighth Century A. D.; A Contribution To The History Of Linguistics. **Journal of the American Oriental Society 93, 146 - 57.**

Carter, M. G. 1983:

Language Control As People Control In Medieval Islam: The Aims Of The Grammarians In Their Cultural Context. **Al-Abhath 31, 65 - 84.**

Elamrani-Jamal, A. 1983:

Logique Artistotelicienne Et Grammaire Arabe; Études Et Documents. **(Études Musulmanes XXVI), Paris.**

Endreb, G. 1978:

Maqalat Yahya Ibn 'Adi Fi Tabyin Al-Fasl Bayna Sina'atayi l-Mantiq wa-l-Nahw al-'Arabi. **Journal for the History of Arabic Science 2, 38 - 50.**

Farabi 1953 Abu Nasr al-Farabi:

In Palencia, A. G. (ed.) ***Ihsa' Al-'Ulum,*** **2nd ed. Mardid/Granda.**

Farisi 1969 Abu 'Ali al-Farisi:

In Farhoud, H. S. (ed.) ***Kitab Al-Idah.*** **Cairo.**

Farra' 1955 - 72 Abu Zakariyya al-Farra:

In Najati, A. Y. and al Najjar, M. A. (eds.) ***Ma'ani L-Qur'an,*** **3 vols. Cairo.**

Georr, K. 1948:

Les Catégories d'Aristote Dans Leurs Versions Syro-Arabes, **Beirut.**

Gibb, H. A. R. (ed.) 1960:
Encylopaedia Of Islam, **2nd ed. Leiden.**
Ibn Babshadh 1976 - 77:
Al-Muqaddima l-Muhsiba, ed. 'Abd al-Karim. (ed.) Kuwait.
Khwarizmi 1895 Abu 'Abdullah Muhammad ibn Ahmad al-Khwarizmi: In Vloten, G. van (ed.) *Miftah Al-'Ulum,* **Leiden.**
Lecompte G. 1953:
Le Livre des Règles de Conduite des Maîtres d'École Par Ibn Sahnun. **Revue des Études Islamiques 21, 77 - 105.**
Lughda 1974:
Kitab Al-Mukhtasar (Fil-Nahw), **al-Fatli, A. and Shilash, H. T. (eds.) Mawrid 4, 221 - 246 .**
Makdisi, G. 1961:
Muslim Institutions Of Learning In Eleventh Century Baghdad. **Bulletin of the School of Oriental and African Studies 24, 156-.**
Makdisi, G. 1961:
The Rise Of Colleges, **Edinburgh.**
Mubarrid Abu l-Abbas al-Mubarrid 1963 - 69: In 'Udayma, M. A. K. (ed.), *Al-Muqtadab,* **4 vols. Cairo.**
Peters, F. E. 1968:
Aristotle And The Arabs. **New York/ London.**
Quedama Ibn Ja'far 1956:
Naqd Al-Shi'r, **Bonebakker, S. A. (ed.). Leiden.**
Rundgren, R. 1970 - 71:
Arabische Literature Und Orientalische Antik. **Orientalia Suecana 19 - 20, 81 - 124.**
Schacht, J. 1959:
The Origins Of Muhammadan Jurisprudence, **3rd imp. Oxford.**
Sezgin, F.:
Geschichte Des Arabischen Schrifttums, **vol IX, Grammatik bis ca 439 H, Leiden.**
Sibawayhi 1898 - 1900:

Kitab Sibawayhi, **2 vols. Bulaq, reprinted, Baghdad (1965).**

Talmon, R. 1982:

Nahwiyyun In Sibawayhi's Kitab. **Zeitschrift fur Arabische Linguistik 8, 12 - 38.**

Talmon, R. 1985:

Who Was The First Arab Grammarian? A New Approach To An Old Problem. **Zeitschrift fur Arabische Linguistik 15, 128 - 45.**

Troupeau, G. 1976:

Lexique-Index Du Kitab De Sibawayhi, **Paris.**

Versteegh, C. H. M. 1977:

Greek Elements In Arabic Linguistic Thinking, **Leiden.**

Yazidi 1974 Ahmad ibn Muhammad ibn Shayban al-Yazidi: ***Makhtut Farid Nafis ʿan Maratib Al-Nahwiyyin.*** **Al-Ta"an, H. (ed.) Mawrid 3, 137 - 44.**

Zajjaji 1969 Abu l-Qasim al-Zajjaji: In Mubarak, M. (ed.), ***Kitab Al-Lamat.*** **Damascus.**